المنهج الإسلامي في معاملة المخالف وتعزيز قيم المواطنة
وتجدده في فقه العلامة بن بيه
حلف الفضول ودستور المدينة نموذجا

The islamic approach in dealing with opponents and enchancing citizenship values and its renexzel in the understanding of scholar BinBayyah
The alliance of fudul and the constitution of medina exemples

دنفير مصطفى
كلية العلوم الاقتصادية والسياسية وعلوم التسيير، جامعة سطيف 1
denfirmostafa1@yahoo.fr mostafa.denfir@uni-setif.dz

ملخص : يهدف هذا البحث إلى تأصيل القيم الكونية المطلقة في التسامح والتعايش على المشتركات ببيان الهدي النبوي في معاملة غير المسلمين بـالعدل والإحسان، واستدعاء القواسم المشتركة، من خلال قراءة في حلف الفضول الذي حضره الرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وأشاد به بعدها، بما حواه من قيم الانتصاف لصاحب الحق، والانتصار للمظلوم، ووثيقة المدينة بحسبانها أول دستور للمواطنة، بما تضمنته من قيم الأخوة الإنسانية، والعدل والمساواة، وحرية العقيدة والعبادة، وحرمة الأنفس والأموال، والتكافل والتعاون على الخير، والتعاضد على رد العدوان، بما يوجب استدعاء هاتين المفخرتين، لاسيما في زمن العصبية الدينية أو القومية، لتفكيك الأزمات المتراكبة.

وقد أوفى مشروع تعزيز السلم الذي خطه العلامة عبد الله بن بيه وشيد بنيانه ، بهذه الواجب الكفائي بتجديد الخلق العربي المرشد، والمنهاج النبوي المؤيد، بدعوة العلماء وأهل الرأي المسلمين إلى إعلان البراءة من العنف باسم الإسلام، وصياغة ميثاق لحماية الأقليات غير المسلمة في بلاد المسلمين، كما دعاهم ورجال الدين من العائلة الإبراهيمية، وأولي بقية من الملل والنحل والطوائف المختلفة إلى حلف فضول جديد، ينتصر فيه للمستضعفين، وتعلى فيه قيم السلم والتسامح والعيش المشترك، وقد توجت المبادرتان، في سياق تراكم العمل الإيجابي البناء، بوثيقة الأخوة الإنسانية بين الأزهر الشريف والكنيسة الكاثوليكية، ضمنت مخرجتاهما.

الكلمات المفتاحية: عبد الله بن بيه. تعزيز السلم. إعلان مراكش. حلف الفضول الجديد. وثيقة الأخوة الإنسانية.

***Abstract**: This research aims at rooting universal and absolute values in tolerance and coexistence, focusing on the commonalities by illustrating the Prophetic guidance in treating non-Muslims with fairness and benevolence. It highlights common denominators, citing the pre-Islamic alliance of virtue 'Hilf al-Fudul,' which Prophet Muhammad (peace and blessings of Allah be upon him) attended and praised later for its values of standing up forthe oppressed and championing justice. The research also references the 'Constitution of Medina', viewed as the first charter of citizenship, embodying values of human fraternity, justice, equality, freedom of belief and worship, sanctity of life and property, cooperation for good, and mutual defense against aggression. These two documents are imperative, especially*

in times marked by religious or nationalistic tensions, offering solutions to compounded crises.

Furthermore, the peace-promotion project conceptualised by the scholar Abdullah bin Bayyah meets the collective duty of reviving the guiding Arab ethos and the Prophetic path. It advocates for Muslim scholars and thought leaders to publicly renounce violence in Islam's name, and to formulate a pact for safeguarding non-Muslim minorities within Muslim territories. Additionally, they are encouraged to align with religious leaders from the Abrahamic traditions and other various sects and groups to establish a new 'Hilf al-Fudul', championing the rights of the marginalized and upholding values of peace, tolerance, and shared living. These endeavors have culminated in the 'Document on Human Fraternity' between Al-Azhar Al-Sharif and the Catholic Church, encapsulating their collective resolutions.

Kaywords: *Abdullah bin Bayyah. Promoting peace. New fudul alliance*. *Marrakesh Declaration Constitution of Medina. Document on Human Fraternity*

مقدمة: كان الإسلام في ميلاده المشرق ونشأته الأولى ملاذا وسيعا آمنا للبشرية من ضيق الجهل والعصبية والعدوان، وعنوانا للمدنية المؤمنة التي لم يعرف عرب ولا عجم مثلها إلا قشورا من مادية صماء، أو أولي بقية من العقلاء المتألهين؛ ، فأصبحت الشريعة المحمدية بذلك مثالا للعلم والعدل والرحمة ورفع العنت عن الناس.

وكان جهاد المسلمين الأول إخراج الناس من الجهل إلى العلم، ومن الجور إلى العدل، ومن العصبية إلى الإنصاف، ومن ضيق العبودية الآسرة للعقول والأجسام إلى سعة حرية الانتساب إلى الله الحكيم الرحيم، وأخذت تعاليم الإسلام تتمدد في بقاع الأرض بهذه الروح المتوثبة إلى نفض غبار التيه عن العقول، وتجلية رونق الفطرة التي انسدلت عليها حجب الغفلة، فلا تكاد تعرف معروفا أو تنكر منكرا.

ثم انعطف منحنى الدورة الحضارية إلى سفل، وتولت جحافل الفتح الإسلامي عن الزحف على معاقل الظلم والسفاهة، وأجدبت أرض الإسلام، وانتكست راية التوحيد في كثير من قلاعه، بعد أن تعطل جهاد الحياة والمدافعة في ميادين التحضر والقيم الكونية التي أعلاها الإسلام فانفتحت له بها القلوب والعقول قبل القلاع والحصون؛ وبرز فكر مأزوم تقحم معركة المفاهيم لا عقل أو علم، أدلف في وحل المشكلات بلا تشمير، فحرف الدين وأفسد الدنيا، وعلت منه صيحات جهاد الموت، ونشر الخوف، وإرهاب الناس وفتنتهم عن دين الله.

وقد بادر العلامة عبد الله بن بيه في لفيف من أضرابه إلى هذه الملحمة العلمية مبكرا ، وقد انقدح شررها، ولم يشتد أوراها بعد، بصناعة المفاهيم الموطئة للمواطنة، المعززة للسلم؛ متذرعا، إضافة إلى النصوص الجزئية والقواعد الكلية والفهم الصحيح لكلي الزمان والمكان، بما احتواه المنبع الثر المغفول عنه في استمداد الحكم الشرعي؛ سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسيرة خلفائه الراشدين المهديين

من أبي بكر إلى الحسن السبط رضي عنهم أجمعين، وهو الجانب المشرق المنسي من ماضينا الإسلامي الرشيد.

وقد أطلق في سبيل ذلك مبادرتي إعلان مراكش لحماية الأقليات غير المسلمة، وحلف الفضول الجديد للدعوة إلى القيم الكونية الإنسانية لتكون فضاءات لقاء وحوار، وبدائل عن التهارج والاحتراب، وفرصا للتواطن والتعايش. وقد توسطت المبادرتين، في سياق تراكم العمل الإيجابي البناء، وثيقة الأخوة الإنسانية بين الأزهر الشريف والكنيسة الكاثوليكية، لتكون جسرا يربط بين المبادرتين، يستمد من الأولى، ويمهد للثانية.

الهدف من الورقة :

يأتي هذا البحث في سياق الهبة الرشيدة لإحياء جهاد المفاهيم بتجديد فقه الدين فهما وتنزيلا، ورده إلى معينه الأول، من طريق الركام الضخم للتراث الفقهي الذي تظافرت على نخله جهود كبيرة من الأذكياء المخلصين للعلم والحقيقة، واستخراج الدرر الكامنة فيه التي تعلي قيم الرحمة والتسامح وإيثار الحوار والتعاون على الخير، وحل المشكلات العلمية التي ظاهرها معارضة هذه القيم، مع ضميمة اعتبار الواقع وتغيراته السلبية والإيجابية، والعوامل المؤثرة فيه الداخلية والخارجية

إشكالية البحث: ما المدى الذي وسعه المنهج الإسلامي في استيعاب الاختلاف في الدين والمعاملة مع غير المسلمين؟.

ويتفرع عن سؤال الإشكالية أسئلة فرعية تخدم تسلسل البحث فيه: ما المبادئ التي تتأسس عليه قيم التعايش والتسامح والمواطنة؟، وهل أوفت المبادرات التي أطلقها الشيخ عبد الله بن بيه أو مهد لها بهذا الهدي النبوي؟.

منهج البحث: تجيب الدراسة عن سؤال الإشكالية وأسئلته الفرعية، من خلال العرض والتحليل للنصوص الشرعية، والمواقف العملية في السيرة النبوية الشريفة والمبادرات الثلاث: إعلان مراكش، ووثيقة الأخوة الإنسانية، وحلف الفضول الجديد، وما انبق عنها من مبادئ، وما أكدت عليه من قيم مشتركة تعلي من قيمة الإنسان وتقطع السبيل على نزوع التطرف والعنف والكراهية، وتبرئ الدين مما ألصق به زورا وبهتانا في أربعة مباحث:

الأول: في المبادئ التأسيسية للتعايش وقيم المواطنة؛
الثاني: في فقه المواطنة من دستور المدينة إلى إعلان مراكش؛
الثالث: في حلف الفضول القديم والجديد؛
الرابع: في وثيقة الأخوة الإنسان ... جسر بين المبادرتين؛

المبحث الأول: المبادئ التأسيسية للتعايش وقيم المواطنة.

إن منهج الشمول، في التعامل مع المدارك الشرعية نصوصا جزئية، وقواعد كلية، وواقعا عمليا يصلح لأن يتخذ مسالك لفهم أحكام الشرع وتنزيلها، هو الكفيل بأن يدفع الغلو في الفهم، والانتحال في التأويل، والاعتساف في التنزيل، وبذلك يرفع التعارض الذي قد يظهر للمتعجلين بين النصوص الشرعية، فيخرجوا من رحم الدين مسوخا، ومن أوعيته أحكاما تناقض مقاصده القطعية.

ولقد تضافرت النصوص الجزئية والسنة الفعلية للنبي صلى الله عليه وسلم والممارسة الإسلامية الرشيدة في التاريخ الإسلامي على ترسيخ مبادئ التعايش والتسامح واستدامة السلم في مجتمع يعلي قيمة الإنسان، بحفظ الكرامة التي أنعم الله بها عليه، ولا يضيق بالاختلاف في الدين أو العرق أو اللغة أو الطائفة، ولا يبخس المخالف حقه، ويتحرى فيه العدل، ويمد له يد العون، ويبذل البر والإحسان.

المطلب الأول: الكرامة الإنسانية : تكريم الله للإنسان، من حيث كونه نفخة من روح الله، هو النعمة الثانية بعد نعمة الإيجاد، فقد كرمه بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد، وبتسليطه على ما في الأرض وتسخيره له (الزمخشري، صفحة 501/2).

وفي التكريم معنى التشريف بأن جعله " نفيسا غير مبذول، ولا ذليل في صورته، ولا في حركة مشيه، وفي بشرته؛ فإن جميع الحيوانات لا يعرف النظافة، ولا اللباس، ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه، ودفع ما يضره، ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها" (ابن عاشور، صفحة 165/15)

ولا ينفك معنى التكريم بالتشريف عن معنى التكريم بالتكليف، فعلى قدر الأول يكون الثاني، لأن التكليف مناط الترقي بما ركب الله في الانسان من قابليات واستعدادات ولطائف، وما حباه به من السمو في الكمالات، ليضطلع بالأمانة التي حمل، ويقوم بواجبات العمران والخلافة في الأرض، فجعل منه أولياءه وأنبياءه ورسله، وهم أشرف الخلق طرا، وأشرفهم فخر الكائنات قاطبة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله سلم.

ومن مظاهر التكريم أن متعه بالعقل الذي هو مناط التكليف ليهتدي به إلى الرشد، وأعطاه الحرية في الاختيار بين أن يشكر نعمة ربه عليه أو يكفر بها، وحمله مسؤولية اختياره، وجعله حسيبا على نفسه، رهينا لكسبه، رقيبا على أقواله وأفعاله، فلم يقبل منه الدين بإكراه، ومنع أن يجبر على الإيمان **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ** [البقرة : 256] وجعل إظهاره للإيمان مع إبطان الكفر نفاقا وزندقة يهوي به في الدرك الأسفل من النار.

ومن مقتضيات التكريم أن أوجب الشرع الحرمة لروح الإنسان وبدنه، والصيانة لماله وعرضه، وقرر العقوبات والزواجر على من يعتدي عليه، قال تعالى: **سورة البقرة وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ سجى** : تجمجمحتحجسحج

والمسلم وغير المسلم في حرمة النفس والعرض والمال سواء، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم " من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة "، بل إن النهي فيما دون الاعتداء المادي ممنوع، قال القرافي في من له ذمة من غير المسلمين: " من اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الله " (القرافي، صفحة 14/3).

ولم يكتف الشرع بكف الأذى عن غير المحارب بل رغب في بره ووصله، ورتب الثواب على الإحسان إليه، وأوجب على بره مقام المحبوبية، وليس فوق المحبوبية مقام: **سورة الممتحنة لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ سجى** سورة الممتحنة: جمح

والسيرة النبوية، وتاريخ الإسلام من عصر الراشدين، ومن بعدهم من أهل الهداية طافحة بمفاخر في التعامل مع غير المسلمين من الذميين أو المعاهدين، وكل مسالم لم يبادر بعداوة أو يسبق إلى عدوان.

المطلب الثاني: سنة الاختلاف وفضيلة الانصاف

الاختلاف من سنن الله في الأنفس والآفاق، فقد خلق الله الآفاق بين شموس وكواكب، والكواكب بين آهلة وخواء، وجعل الشمس دليلا تفرق بين الليل والنهار، والظل والحرور، ونوع الفصول إلى أربعة، لكل فصل تصاريف؛ وجعل الأرض يابسة وماء، وبقاعها سهولا وجبالا، وغابات وأحراشا، ولها من خصوبة الأرض أنواع كثيرة بين أرض سواد معشبة، ومفاوز قفار مجدبة.

كما جعل الأنفس من غير اختيار نساء ورجالا، صغارا وكبارا، أغنياء وفقراء، وجعلهم ألوانا وألسنة مختلفة، وجعل النفس الواحدة أطوارا مختلفة، بين ضعف النشأة وقوة الشباب ووهن الشيوخ، وجعل لها أحوالا متقابلة بين بسط وقبض، وأنس ووحشة ، وحزن وفرح، وضحك وبكاء، وحركة وسكون، ونشطة وخمول، وجعل كل حال منها مراتب، فحزن دون حزن، وفرح فوق فرح، وضحك كالبكاء، والبكاء صنوف من بكاء اهتمام إلى بكاء انتعام، والحركة بين حركة رشد، وحركة عبث، وحركة حمق، والسكون أضراب سكون كسل، وسكون راحة، وسكون تأمل.

وإن الاختلاف اختيارا كالاختلاف اضطرارا تجل من تجليات الإرادة التكوينية في التنوع الذي فطر الله عليه الإنسان، فالناس بما ركب فيهم من الاستعدادات المختلفة، وما أهلوا له من التمييز، ليسوا على قدم واحدة في النظر والاعتبار، فتختلف بذلك سبلهم: **سورة المائدة لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ**

أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ **سجن** الواحدة : جمع تخمة، أي لو شاء لكم الاختلاف والتنوع، ليمتحن اختياركم، ولو شاء جل وعز لجعل الناس كلهم جماعة واحدة على ملة واحدة، ودين واحد (الطبري، صفحة 531/15).

وقد مال إلى هذا التفسير بعض أهل التأويل، منهم: الحسن وعطاء ومقاتل، كما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن وارتضاه عند تفسير قوله تعالى: **سلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ سجن** : جمع تحجمة، أي للاختلاف خلقهم وهو معنى لطيف يحتمله النص، وتزكيه تجليات الحكمة في جعل الإنسان خليفة على الخلق، وتكليفه بمعرفة الخالق (القرطبي، صفحة 115/9)

وفي الاختلاف امتحان للإنسان كيف يصنع مع المخالف إن أحسن أو أساء، وكان صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم يحمد القيم النبيلة من أي وعاء صدرت، فأثنى على حلف الفضول، وقال "لو دعيت به في الإسلام لأجبت"، وأثنى على ملك الحبشة لعدله وهو على نصرانيته فقال " اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد"، ومدح لبيد بن ربيعة في جاهليته فقال صلى الله عليه وآله وسلم " أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد " ألا كل شيئ ما خلا الله باطل" (ابن عبد البر، صفحة 392/3).

ومدح بني شيبان بعد أن عرض عليهم الإسلام واستحسنوه وعاملوه بالأدب والحسنى، ولم يمنعه من مدحهم أن آثروا السلامة لخوفهم من بطش الفرس وكانوا في حلفهم، فقال صلى الله عليه وسلم " ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ "، فقال النعمان بن بشير: اللهم لك ذا، فتلا رسول الله " إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذير وداعيا إلى بإذنه وسراجا منيرا "، ثم نهض فأخذ بيد أبي بكر، فقال " يا أبا بكر أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها؛ يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم" (كثير، صفحة 165،164/3)

وروى مسلم وغيره: " قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " تقوم الساعة والروم أكثر الناس"، فقال له عمرو أبصر ما تقول، قال أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لئن قلت ذلك " إن فيهم لخصالا أربعا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وإنهم لأمنع الناس من ظلم الملوك " (مسلم، 1955، صفحة 222/4).

المطلب الثالث: فريضة العدل وفضيلة الإحسان

العدل من القيم الكونية الكبرى التي قررتها الشرائع ولم تتخالف فيها العقول، وقد أخبر الله أنه العدل، ومن أسمائه الحسنى العدل، وحرم على نفسه الظلم، ففي الحديث: " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا".

وقد تواترت النصوص في القرآن والسنة وتظافرت في إعلاء قيمة العدل، وتقرر في القواعد أن الشريعة المحمدية عدل كلها، قال ابن القيم الشريعة " عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة؛ فليس من الدين وإن أدخلت فيه بالتأويل"

والعدل قيمة مطلقة، لا تميز المؤمن عن الكافر، ولا تفرق بين الصديق والعدول، ولا تبذل للموافق وتمنع عن المخالف، وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة تأمر بالعدل وتنهى عن الجور ولو مع العدو " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى"

والإحسان أخو العدل وصنوه، وقد قرنه الله إليه في قوله تعالى " إن الله يأمر بالعدل والإحسان" ليس مع الموافق فحسب، بل والمخالف كذلك إن لم يعلن العداوة ويبادر بالحرب، فرغب في بره ووصله، ورتب الثواب على الإحسان إليه: **سلاجخ هَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨سجل** الممتحنة: جمحسجح

وفي تعليق الحافظ ابن حجر على حديث الرجل الذي سقى كلبا فشكر الله له وغفر ذنبه قال: "وفيه الحث على الإحسان إلى الناس، لأنه إن حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقي المسلم أعظم أجرا، واستدل به على جواز صدقة التطوع للمشركين"، لعموم قوله " في كل كبد رطبة صدقة" (ابن حجر لعسقلاني، صفحة 50/5) .

لقد أحسن الصحابة التلقي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأورثوا للمسلمين من بعدهم هذا الهدي النبوي، فقد روى مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وغلامه يسلخ شاة، فقال يا غلام؛ إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجل من القوم: اليهودي أصلحك الله؟، قال: إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بالجار، حتى خشينا أو رأينا أنه سيورثه. وعند القرطبي في تفسيره " الأحاديث في إكرام الجار جاءت مطلقة غير مقيدة حتى الكافر كما بينا... قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة عند تفريق لحم الأضحية " ابدئي بجارنا اليهودي" (القرطبي، صفحة 188/5)

ومن الإحسان إليهم، عيادة مريضهم، والتعزية في ميتهم، وتهنئتهم بأفراحهم وأعيادهم، إشعارا لهم بالتضامن والشعور بالمواساة والمآزرة، فالمسلم صادق لا يظهر إلا ما في سريرته، واختلف العلماء في الأعياد التي لها علاقة بدينهم، فذهب بعض العلماء إلى عدم الجواز، وذهب آخرون إلى الجواز، وهو

الأقرب إلى تحقيق مقصد الإحسان ونشر المحبة بين الناس وهي من مقاصد الشرع، مع ضميمة أن المسلم لا يقرهم بالتهنئة على دين لا يعتقده، وإنما على فرحهم من أجل دوام الصلة.

المطلب الرابع التعارف والائتلاف:

ومن حكم الاختلاف، التعارف " يا أيها الناس إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"، والتعارف طريق الائتلاف، وبإضدادها تتمايز الأشياء، ومن كلام علي بن أبي الطالب " يا مالك الناس إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق" وقد استشهد بهذه الكلمة الذهبية كوفي عنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة، وعلق قائلا: " هذه العبارة يجب أن تعلق على كل المنظات، وهي عبارة يجب أن تنشدها البشرية" وبعد أشهر اقترح عنان أن تكون هناك مداولة قانونية حول (كتاب علي إلى مالك الأشتر)

والاختلاف مناط التكليف والامتحان للناس في إدارة شؤونهم العامة والخاصة، ولولاه لتعطلت حركة العمران، إذ إنها تقوم على التداول والتدافع، وهما من أكبر سنن الاجتماع البشري، ولا يكونان إلا بالاختلاف " ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض".

وقد رغب الشرع في الائتلاف، وفتح الذرائع لطلب أسبابه، وحث على البحث عما يجمع الناس ويوحد كلمتهم، وعلى الجهد في تجميله وتعظيمه، والعمل على تفكيك أسباب النزاع وتصغيرها؛ وهل كانت دعوة الإسلام إلا إفراد الخالق بالوحدانية، وتوحيد الخلق على كلمة الحق " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ..".

المطلب الخامس :التعاون والتسخير

من آثار الاختلاف الجبري التكويني في القابليات والاستعدادات الفطرية والملكات الكسبية ضرورة التعاون واستخدام الناس بعضهم في شؤون الحياة، فالمرأة والرجل لا يمكن لكل واحد منهما أن يكون سببا في استمرار النوع الإنساني، بل بالتزاوج والسكن، وأهل الحرف والصناعات وفلح الأرض يحتاج بعضهم لبعض. **سنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَسجالزخرف** : تحجتحمسحج

قال أهل التفسير في معنى الآية أن الله خلق الناس مسيرين في أمورهم على نحو ما هيأ لهم من نظام الحياة، وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، ومنتجين ومستهلكين، وفلاحين وصناع وأهل تجارة، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ليتعمل بعضهم بعضا في شؤون معاشهم، فإن الإنسان جبل على الاجتماع، يعلم ويتعلم، ويبيع ويشتري، ويخدم ويستخدم (ابن عاشور، صفحة 201/25)

المبحث الثاني : فقه المواطنة ... من دستور المدينة إلى إعلان مراكش.

تعددت أسماء هذه الوثيقة في كتب التاريخ القديم والمعاصر، فسماها المتقدمون صحيفة المدينة، أو العهد النبوي، أو كتاب النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويميل المعاصرون إلى تسميتها دستور المدينة لتقريب المعنى للواقع القانوني المعاصر، والمعنى واحد أول وثيقة قانونية متكاملة في التاريخ أرست قواعد المواطنة وثبتت أركان العدل بين مكونات المجتمع وطوائفه، ونظمت العلاقات لتسود التسامح والمحبة والسلم بين الناس، وقد نسج على منوالها إعلان مراكش لحماية الأقليات غير المسلمة.

..المطلب الأول : وثيقة المدينة ... دستور المواطنة الأول

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرا إليها من ظلم قريش، وجد فيها قبائل من العرب منهم المسلمون ومنهم من بقي على الشرك، ووجد في كل قبيلة بطنا من بطون اليهود، وبينهم توافق أحيانا وخصومات في أحايين أخرى، فآخى بين أولا بين المسلمين، المهاجرين والأنصار، وأذهب ما بين قبائل الأنصار من عصبيات الجاهلية وضغائن التنازع، ثم انعطف إلى باقي مكونات المجتمع المدني الفتي، من مشركين ويهود، فجمعهم والمسلمين على دستور للمواطنة يؤسس للمبادئ الكلية، ويحدد الحقوق والالتزمات، ويضع القواعد الناظمة للعلاقات.

تضمنت وثيقة المدينة المبادئ الأساسية التي تقوم عليها دولة الحق والقانون والمواطنة، وتحفظ السلم والتعايش بين الناس على اختلاف أديانهم وأعراقهم، وتعدد مذاهبهم ومشاربهم، وتعارض مصالحهم؛ بما يجعلها الوثيقة القانونية الأولى في العالم التي أسست للقاعدة الدستورية .

وقد جاءت الوثيقة في نحو خمسين بندا أو مادة تزيد أو تنقص بحسب اختلاف الروايات، ويمكم أن نجمعها في ثلاث مبادئ كلية، يشكل كل مبدإ محورا يمكن أن تتفرع عنه بنود غير التي ذكرت تفصل ما أجمل فيه بحسب ما يقتضيه الزمان والمكان.

أما المبدأ الأول ففي تحديد مكونات المجتمع الجديد: المؤمنين واليهود والمشركين، واعتبرت الوثيقة المؤمنين جسدا واحدا يوالي بعضهم بعضا، كما اعتبرت المؤمنين أمة مع اليهود يتناصحون ويتناصرون، ويبر بعضهم بعضا في غير إثم، وأبقت على ما يصلح من الأوضاع القانونية، كالجوار والديات والأحلاف.

وحافظت الوثيقة على تركيب المجتمع المدني في نظامه القبلي، فجعلت المهاجرين قبيلة، والأنصار قبيلتين: الأوس والخزرج، أما الأوس فقبيلتان بنو أوس، وبنو النبيت، ولكل منهما بطونه من العرب وأحلافهم من اليهود والمشركين، وأما الخزرج فست قبائل: عوف والحارث، وساعدة، وجشم، والنجار، وعمرو، وفيهم أحلافهم من اليهود والمشركين.

هذا، وتضمن المبدأ الثاني للوثيقة الحقوق والحريات العامة، بتحديد الهوية الدينية لمكونات المجتمع الجديد؛ فالمؤمنون ملة، واليهود ملة، والمشركون ملة، وكفلت حرية العقيدة والعبادة لغير المسلمين، مع حرمة دمائهم وأموالهم، وإرساء قواعد المساواة والعدالة الاجتماعية، ومنع الظلم دفعا ورفعا، وألا يأخذ منهم شيء إلا بعدل فذممهم محفوظة لهم يستقلون بأموالهم دون المسلمين، وأنهم لا يبخسون حقا إلا من ظلم، فإنه اجتلب لنفسه وأهله ما يضر " وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم".

كما وضعت حدا في البند السابع والثلاثين للعصبية الجاهلية التي تنتصر للقريب والحليف ولو كان ظالما، فقررت أن الانتصاف لا يكون إلا للمظلوم من غير تقييد بدين أو انتماء أو حمية للظالم أو المظلوم، كما قرر في البند السادس والأربعين في المسؤولية القانونية الشخصية والجماعية، فنصت على أن مقترف الفعل الجرمي مسؤول عما اجترح، وأنه لا يآخذ أحد بجرم لم يرتكبه، وإن من حليف و" لا يكسب كاسب إلا على نفسه"، إلا فيما يقضي ميزان العدالة أن يشرك قبيلته أو أهله فيه، لأنهم عاقلته ويتحملون بعض آثار جنوحه " فإنه لا يوتغ إلا أهله ".

ومن المبادئ التي أسست لها الوثيقة التزامات المواطنة الإيجابية الفعالة بالمشاركة في المجتمع بالاقتراح "النصح والنصيحة والبر دون الإثم" "، والحث على التكافل بين أفراد المجتمع في مراتبه المختلفة، ، والمشاركة في الدفاع عن الدولة النائشئة " وأن بينهم النصر على من دهم يثرب' ، و"أنه لا تجار قريش ومن نصرها" بحسبانها معادية لدولة المدينة، "وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محرابين".

المطلب الثاني: إعلان مراكش ... نسج على المنوال العتيق

إعلان مراكش من مبادرات العلامة بن بيه لتفكيك ألغام التطرف من الجهتين : الإسلامية والغربية، فهو وإن كان يحمل في ظاهره معنى حماية الأقليات غير المسلمة في بلاد المسلمة وهو كذلك، ففيه أيضا خطة للتخفيف من غلواء ظاهرة الإسلاموفوبيا المتنامية في بلاد الغرب لأسباب كثيرة، منها ما يشاع وينشر في التقارير الدورية التي ترفعها المنظمات غير الحكومية المعنية بحقوق الإنسان عموما، وحقوق الأقليات على وجه الخصوص.

إن التحفظات التي تصدر عن المؤسسات الدولية التابعة للأمم المتحدة، أو الاتحاد الأوربي عن التضييق على الأقليات غير المسلمة في بلاد المسلمين من مجموعات متطرفة، وما تتعرض له من اعتداءات منظمة وغير منظمة بعنوان الدين غالبا، واقع لا ينكر، والحكمة تقتضي تفكيك الأسباب وإبطالها سببا إثر سبب، وما لا يدرك كله لا يترك كله.

وقد صدر إعلان مراكش عن المؤتمر الذي عقد في المملكة المغربية في مدينة مراكش، وإليها نسب، بالتعاون بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة، ومنتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة من دولة الإمارات العربية المتحدة، وبمبادرة منه، بين 25-27 يناير 2016، بوسم " حقوق الأقليات الدينية في الديار الإسلامية، الإطار الشرعي والدعوة إلى المبادرة "، وشارك فيه كوكبة من العلماء والباحثين ورجال الدين من مختلف الديانات والطوائف والأعراق والجنسيات، وحضره ممثلون عن مؤسسات دولية حكومية وغير حكومية (إعلان مراكش، 2016).

وهدف المؤتمر المعلن في بيانه هو رفع رداء الشرعية عن العنف ضد الأقليات غير المسلمة في بلاد المسلمين، وتمكينهم من أداء شعائرهم الدينية التي كفلتها لهم الشريعة المحمدية، وتبرئة ساحة الإسلام مما يلصق به من أبنائه المتطرفين المتنكبين لسبيل الرشد، أو ينسب إليه من خصومه المغرضين، ومحو الصورة النمطية التي تلقى من هذا الطرف أو ذاك إلى المسالمين غير المسلمين الباحثين عن الحقيقة، الراغبين في العيش المشترك.

وفي ديباجة الإعلان إشارة إلى حماية المسلمين من رد الفعل الذي قد يحدثه الفكر المتطرف عندنا لدى الفكر المتطرف في البلاد الغربية، وقد اتخذ المؤتمر وثيقة المواطنة التي حررها الرسول صلى الله عليه وسلم دستورا للدولة الفتية من غير ميز بين مسلم وغير مسلم، وعرفت بوثيقة المدينة.

وجاء الإعلان في ثلاثة محاور رئيسة في كل محور جملة من البنود يجمعها عنوان المحور، فكان المحور الأول في التذكير بالمبادئ الكلية والقيم الجامعة التي جاء بها الإسلام ، في ثمانية بنود، مدارها على التكريم الإلهي للإنسان من حيث كونه نفخة من روح الله، وأن من مقتضيات هذا التكريم أن حرر إرادته في الاختيار، ورفع عنه الإكراه في الاعتقاد، وحمله مسؤولية اختياره.

وأن اختلاف الناس في ما أجبروا عليه بالجبلة أو ما نزعوا إليه بالإرادة الحرة لا يقطع أواصر الأخوة التي بينهم بالرحم الأولى، ولا يخسر ميزان العدل الذي أمروا به، وقرر بأن السلم مقصد شرعي معتبر، وأنه شعار الإسلام، وأنه الأصل في علاقة المسلم بغيره، لأن في دين الله سعة، وما أرسل نبيه إلا رحمة للعالمين، وذلك يوجب على المسلم أن يكون وفيا بعهوده ومواثيقه، وألا ينكث أو ينكل.

وتضمن المحور الثاني التأكيد على أن مرجعية الإعلان هي وثيقة المدينة المنورة المؤسسة للمدنية الإسلامية، والكافلة للحقوق والحريات الأساسية ومنها حق المواطنة للجميع بصرف النظر عن أديانهم أو أعراقهم، فقد " ضمنت بنودها كثيرا من مبادئ المواطنة التعاقدية كحرية التدين ، وحرية التنقل والتملك ، ومبدأ التكافل العام، ومبدأ الدفاع المشترك، ومبدأ العدالة والمساواة أمام القانون.

والوثيقة بهذا العمق حقيقة بترشحها في السياق الحضاري المعاصر لتقدم للمسلمين الأساس المرجعي المبدئي للمواطنة؛ إنها صيغة مواطنة تعاقدية ودستور عادل لمجتمع تعددي أعراقا وديانة ولغة، متضامن، يتمتع أفراده بنفس الحقوق، ويتحملون نفس الواجبات، وينتمون ، برغم اختلافه هم، إلى أمة واحدة ".

وأما المحور الثالث فقد خصص " لتصحيح المفاهيم، وبيان الأسس المنهجية للموقف الشرعي من حقوق الأقليات"، على وفق منهج النظر الفقهي الذي جدد معالمه العلامة ابن بيه في باكورات إنتاجه العلمي، واستمر في النضال من أجله، معالجا القضايا الإشكالية الحالة ومفترضا الحلول للقضايا المتوقعة، ومن هذه الأسس أن الشريعة مبناها على الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، وتحكيم النظر الكلي الذي يربط النصوص الشرعية بعضها ببعض ولا يغفل عن النصوص الجزئية، واعتبار خطاب الوضع ضابطا لخطاب التكليف، وأن لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، فما كان من الأحكام مبنيا على واقع معين، فإنه يتغير بتغير ذلك الواقع، ومن ذلك العلاقات بين أهل الأديان والطوائف.

وقد خرج الإعلان بجملة من التوصيات، منها دعوة " مختلف الطوائف الدينية التي يجمعها نسيج وطني واحد إلى معالجة صدمات الذاكرة الناشئة من التركيز على وقائع انتقائية متبادلة، ونسيان قرون من العيش المشترك على أرض واحدة، وإلى إعادة بناء الماضي بإحياء تراث العيش المشترك، ومد جسور الثقة بعيدا عن الجور والإقصاء والعنف". وحث " ممثلي مختلف الملل والديانات والطوائف على التصدي لكافة أشكال ازدراء الأديان وإهانة المقدسات وكل خطابات التحريض على الكراهية والعنصرية".

وقد دعا الإعلان في توصياته " المثقفين والمبدعين وهيآت المجتمع المدني إلى تأسيس تيار مجتمعي عريض لإنصاف الأقليات الدينية في المجتمعات المسلمة ونشر الوعي بحقوقها، وتهييئ التربة الفكرية والثقافية والتربوية والإعلامية الحاضنة لهذا التيار "، كما دعا " المؤسسات العلمية والمرجعيات الدينية إلى القيام بمراجعات شجاعة ومسؤولة للمناهج الدراسية للتصدي لأخلال الثقافة المأزومة التي تولد التطرف والعدوانية، وتغذي الحروب والفتن، وتمزق وحدة المجتمعات".

وناشد الإعلان " الساسة وصناع القرار إلى اتخاذ التدابير السياسية والقانونية اللازمة لتحقيق المواطنة التعاقدية، وإلى دعم الصيغ والمبادرات الهادفة إلى توطيد أواصر التفاهم والتعايش بين الطوائف الدينية في الديار الإسلامية "، ويبقى الدور الأكبر للعماء في تأصيل " مبدأ المواطنة الذي يستوعب مختلف الانتماءات، بالفهم الصحيح والتقويم السليم للموروث الفقهي والممارسات التاريخية وباستيعاب المتغيرات التي حدثت في العالم".

المبحث الثالث: حلف الفضول ... بين القديم والجديد.

في أيام العرب قبل الجاهلية أحداث تاريخية مظلمة بالظلم والعدوان والإغارة والسلب، وأخرى مشرقة بالكرم والنجدة والإجارة ورد العدوان عن الضعيف، ومن أيامهم المظلمة حرب الفجار، وطرفاها قريش وأحلافهم من كنانة وقيس بن عيلان، وسميت حرب الفجار لانتهاكها مكة وهي حرم، والأشهر الحرم وكانت معظمة عند العرب يمتنعون فيها عن الاحتراب، وقد أعقب هذه الحرب اعتداء وظلم يؤذنان بتفاني العرب، فأسرع بعض عقلائهم إلى حلف الفضول لإقامة ميزان العدل، فكان من مفاخر العرب في الجاهلية وبعد الإسلام، يستدعى في كل المضايق الحرجة للتاريخ، ومنها مضايق التاريخ الحديث والمعاصر، لينسج على منواله (المباركفوري، صفحة 12).

المطلب الأول: حلف الفضول القديم

حلف الفضول مفخرة من مفاخر العرب، وخلق من مكارم الأخلاق التي كانوا عليها في الجاهلية، بما أهلهم لحمل الرسالة العالمية الخاتمة، وقد جاء الإسلام لترسيخها والبناء عليها " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، حضره النبي صلى الله عليه وسلم مع عمومته قبل بعثته، وأشاد به بعدها. فقال: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"، وفي رواية الطبري " شهدت حلف المطيبين ما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه، زاد يعقوب عن ابن علية، قال : قال الزهري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم يصب الإسلام حلفا إلا زاده شدة " (ابن هشام، صفحة 134/1).

وفي إشادة النبي صلى الله عليه وسلم بحلف الفضول دليل على أن الإسلام ليس مسلكا (يصفر التاريخ) كما يزعم الفكر المأزوم والفقه الملغوم، بل هو منهج بناء تراكمي لا يبخس الناس ويغمط الحق، يقول للمحسن أحسنت ولمن أساء أسأت، وهذا من أعظم ميزات الشريعة المحمدية بين الشرائع، وميزات منهج الوسطية والاعتدال بين المناهج والأفكار والأيديلوجيات.

قال ابن كثير: " وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وكان سببه أن رجلا غريبا قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الغريب أهل الفضل في مكة، فخذله فريق، ونصره الآخر، ثم كان من أمرهم ما ذكرناه، وقد تحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة، وعلى التأسي في المعاش، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الغريب، فدفعوها إليه" (ابن كثير، 1976، صفحة 110/1)

المطلب الثاني: حلف الفضول الجديد ... شهامة عربية موروثة

مبادرة حلف الفضول الجديد، بما تبشر به من إعلاء لقيم التسامح، وما تدعو إليه من صيانة للكرامة الإنسانية، وما تنبذه من الكراهية، والظلم والاعتداء؛ استدعاء للتراث الرشيد، واقتفاء لأثر النبوة في معرفة الخير وإنمائه، وإنكار الشر وإقصائه، وهكذا فكر العلامة بن بيه، وهكذا تحرك، فأجرى مياها راكدة، وأحيا أرضا مواتا، ما كانت لتحيا بفكر ينادي بالموت ويدعو بالثبور.

وقد جرى الميثاق على سنن الصنعة التشريعية في صياغة التوصيات والعهود والمواثيق الدولية، فتضمن ديباجة وخمسة فصول رئيسة وفصل ختامي، في سبع عشرة مادة؛ أكد في الديباجة على اعتبار القيم الإنسانية المشتركة بين الأديان، ولاسيما أديان العائلة الإبراهيمية، مجمعا للإتلاف، والتحالف لإطفاء نار الحرب، وتثمين التعاون، على الرغم من الاختلاف، على أسباب التعايش والتسامح والاحترام المتبادل، التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواثيق الدولية، وعززته الجهود التي بادر بها دعاة السلم وعلى رأسها التي أطلقها منتدى تعزيز السلم، والكنيسة الكاثوليكية، وكل الطوائف الدينية الأخرى.

وجاء الفصل الأول، كما جرت عليه نصوص المواثيق والعهود الدولية، في التعريفات ونطاق سريان الميثاق، في مادتين، الأولى في معنى المصطلحات الواردة في الميثاق، وهي ستة مصطلحات: حلف الفضول وحلف الفضول الجديد، وأديان العائلة الإبراهيمية، وأولو بقية في العالم، والحقوق، والقيم، وقد تضمنت هذه المصطلحات حمولة قيمية تنطلق من حقل دلالي واجد مداره على السلم والتعايش والعدل والإنصاف، وقد حددت المادة الثانية نطاق سريان توصيات هذا الميثاق بالملتزمين بما ورد فيه، مع عدم الافتئات على سيادة الدول وفق المنصوص عليه في ميثاق الأمم المتحدة، لاسيما المادة التاسعة والعشرون منه.

وأما الفصل الثاني فتضمن البواعث على هذه المبادرة، وهي ما رصده العقلاء من تحالف بين الفكر المتطرف والممارسة العنيفة وفلسلفة التشيئ المادية لطمس اللطائف الإيمانية، والقيم الروحية، واجتلاب التهمة للدين بالإرهاب المدمر للبشرية، فكان فرضا على من وعى الأزمة، أن ينتهض إلى نزع الشرعية الدينية عن الفكر المتطرف والممارسة العنيفة، وتخليص الإنسان من قبضة العولمة المادية، ورده إلى العالمية الأخلاقية، وإشاعة القيم الكونية المتعالية على المكان والزمان.

وانتهاضا لهده البواعث صيغت الفصول الثلاثة التالية، لتقرير المبادئ التي ينبني عليه الحلف أولا، وهي مبدأ الكرامة الإنسانية، ومبدأ حرية الاختيار وحرية ممارسة الدين، ومبدأ التسامح، ومبدأ العدالة، ومبدأ السلم، ومبدأ الرحمة، ومبدأ البر بالآخرين، ومبدأ الوفاء بالعهود والمواثيق، والأخير مبدأ التضامن.

وهي مبادئ جامعة مانعة، لم تترك استدراكا لموافق، ولا تعقبا لمخالف، وعليها رسمت الأهداف الإجرائية، بالتحضيض على انخراط رجال الدين في حركية السلم، وتعزيز المواطنة الإيجابية المسؤولة،

وتشجيع المختلفين من أهل الأديان على تبادل الاحترام، ومن ذلك حماية حقوق الأقليات، التي كفلتها المواثيق الدولية، التي يجب احترامها، والعمل على إشاعة ما تضمنته من مبادئ وأحكام.

وتفعيل هذه الأهداف يفتقر إلى أدوات تجسيدها في الواقع، من خلال تعيين مجالات الحركة، ورصد المكن والوسائل، وقد حاول الميثاق الإحاطة بها في ثلاثة عناوين، تندرج تحتها مناشط كثير: الأول لربط التعليم بالتربية، وعدم عزله عن الواقع؛ والثاني في العمل الإنساني، لتجسيد مبادئ الرحمة والتضامن والبر بالآخرين المقررة في الميثاق، وإشاعة أخلاق الشهامة والفروسية في إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، وإيواء المشرد؛ والمجال الثالث: التنمية المستدامة، وفي النصوص الدولية غنية عن تكرارها، وقد أحال الميثاق على الأهداف السبعة عشر للتنمية المستدامة للأمم المتحدة (وكالة أبناء الإمارات، 2019).

المبحث الرابع:وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك... جسر بين المبادرتين

وثيقة الأخوة الإنسانية قطاف شجرة ابتدر بذرها العلامة عبد الله بن بيه بتأسيس مشروع تعزيز السلم، ومجلس حكماء المسلمين كأحد مخرجاته وبمبادرة منه وسعي إلى أن خرج من أرض الخمول؛ وأنضجتها سواعد الخير في إعلان مراكش والأعمال التمهيدية لحلف الفضول الجديد، ليكون جسرا يربط بين المبادرتين، و تثمر الجهود بجمع أكبر مؤسستين دينيتين في العالم، الأزهر الشريف، والكنيسة الكاثوليكية الفاتيكان، على صياغة ميثاق يجمع أهل الديانتين على كلمة واحدة تعلي القيم الكونية الكبرى.

ووقع الوثيقة من الطرف الإسلامي الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الدكتور أحمد الطيب رئيس مجلس حكماء المسلمين، ومن الطرف المسيحي قداسة البابا فرانسيس بابا الكنيسة الكاثوليكية، وقد أحتفت بها المؤسسات الدولية، الرسمية وغير الرسمية، بسبب القيمة المعنوية للمؤسستين العريقتين في الديانتين الإسلامية والمسيحية، وللقيم الكونية الكبرى التي حملتها.

وتجسد وثيقة الأخوة الإنسانية خلاصة التعاليم الدينية الإسلامية والمسيحية، وما يتفق عليه العقلاء في كل الملل والنحل من المبادئ الكونية المطلقة، ولاسيما القيم الروحية والأخلاقية التي طغت عليها الفلسفة المادية الفوضوية، الحانحة إلى عولمة الإلحاد والإباحية وتمزيق النسيج الاجتماعي، وتيسير أسباب العنف والكراهية.

وافتتح نص الوثيقة بمقدمة عن وحدة الرؤية في توصيف الواقع بإيجابياته وسلبياته، في الوثبة التي حققها الإنسان في العلاج والرقمنة ووسائط التواصل، وما صاحب هذه الوثبة من تغول الفلسفة المادية وعولمة قيمها المدمرة للطائف الإنسانية، بسبب منطق القوة والأثرة، الذي أنتج الفقر، والقساد، والظلم الاجتماعي، وعدم المساواة، والتدهور الأخلاقي، والإرهاب والعنصرية والتطرف، والتسابق المحموم للتسلح والحروب والآلام التي يعاني منها كثير من بقاع العالم.

وجددت الوثيقة في ديباجتها التذكير بأن الناس كلهم خلق الله من نفس واحدة، تجمع بينهم رابطتا المخلوقية والآدمية، وهذا سبب كاف لوجوب التآخي، وما تستدعيه من الحب والتآزر، والتكافل مع المستضعفين، والاعتناء بالكون إشارة إلى ما تعانيه الطبيعة من اعتداء يهدد الحياة على الأرض بالزوال.

وتهدف الوثيقة لأن تكون إعلانا مشتركا على صدق في النية والعزم في العمل على جمع المؤمنين بالله وبالإخوة الإنسانية وتوحيد جهودهم لجعل القيم الإنسانية النبيلة التي ضمنت في الوثيقة دليلا للأجيال القادمة على الاحترام والتعايش ورعاية حق الأخوة.

لقد صدر متن الوثيقة بعد المقدمة بتطريز جميل مبنى، وفيه من عمق المعاني ما يصلح أن يكون قطعة أدبية تدرس للطلاب في المدارس والجامعة، ابتدئ "باسم الله الذي خلق البشر جميعا متساوين في الحقوق والواجبات والكرامة، ودعاهم للعيش فيما بينهم ليعمروا الأرض، وينشروا فيها قيم الخير والمحبة والسلام"، وقد أحسن من صاغ الوثيقة بهذا الافتتاح، الذي فيه من إعلان العبودية والعجز والافتقار، كما فيه إشعار بالتوكل وطلب العون من الله رب العالمين.

ومضت الوثيقة في الوشي عن مقاصدها من خلال الإشارات التي تضمنها هذا التطريز البديع، باسم النفس البشرية الطاهرة ... باسم الفقراء والبؤساء والمحرومين والمهمشين ... باسم الأيتام والأرامل والمهجرين والنازحين من أوطانهم وديارهم، وضحايا الحروب والاضطهاد والظلم، والمستضعفين والخائفين والأسرى والمعذبين في الأرض دون إقصاء أو تمييز.

وباسم الشعوب التي فقدت الأمن والسلام والتعايش، وحل بها الدمار والخراب والتناحر، باسم الأخوة الإنسانية التي تجمع البشر جميعا، وتوحدهم وتسوي بينهم ... الأخوة التي أرهقتها سياسات التعصب والفرقة ... باسمِ العَدْلِ والرَّحمةِ، أساسِ المُلْكِ وجَوْهَرِ الصَّلاحِ ... باسم ذوي الإرادة الصالحة في كل بقاع الأرض".

باسم الله الذي هو مبتدأ كل أمر ذي بال ومنتهاه، والسلم والعدل والتعايش أمر ذو بال، ختم هذا التطريز الجميل، لتعلن الوثيقة على لسان موقعيها ومن يمثلون من شعوب الأرض من مسلمين ومسيحين ومن لف لفهم وآمن بالقيم التي اجتمعوا عليها ع لى العزم لاتخاذ ثقافة الحوار دربا والتعاون المشترك سبيلا، والتعارف نهجا.

ثم مضى بيان الوثيقة في تشخيص أزمة الحضارة الحديثة، بعد التنويه بالنجاحات التي حققتها في العلم والتقنية والطب والصناعة والرفاهية لاسيما في الدول المتقدمة، فأرجع إسبابها إلى تراجع الأخلاق الضابطة للتصرفات الدولية، وتراجع القيم الروحية والشعور بالمسؤولية، الظلم واستئثار القلة بالثروات

الطبيعية، التي أنتجت الشعور بالإحباط والعزلة واليأس، ودفعت إلى الجنوح إلى التطرف بمتقابليه: الديني المتعصب، واللاديني الملحد، وإلى الأدمان التدمير الفردي والجماعي.

إن دواء أمراض الحضارة الحديثة، كما تقرر في نص البيان، يبدأ بالرجوع إلى الفطرة، والإيمان بالله خالق الكون ومدبر شؤونه، وإيقاظ الوازع الديني في النفوس، من طريق التربية السليمة، لمواجهة النزعة الفردية، والأنانية، والأثرة، والنزوع إلى المشاعر السلبية والسلوكات المدمرة كالتعصب والكراهية والتطرف والعنف اللفظي والجسدي؛ فالتعاليم الصحيحة للأديان تدعو إلى السلام والتعارف، والأخوة والتعايش، والحكمة والعدل والإحسان، والحوار سبيلا لحل النزاعات، وتطامن غلواء الفكر المادي وفلسفة القوة.

وأكدت الوثيقة على حرية الإنسان في الاعتقاد والفكر والتعبير، وواجب حماية دور العبادة، واحترام المقدسات، وتجريم الإكراه على الدين والثقافة، وإنكار فرض نمط حضاري معين، والتنديد بالعنف والتطرف والإرهاب، وإرساء قيم المواطنة على أساس العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، والاندماج الكامل لمكونات المجتمع بلا تمييز بسبب الدين أو العرق أو الجنس، ولا بين أكثرية وأقلية، وذكر وأنثى وصغير وكبير، مع احترام الخصوصيات الثقافية للجميع، وتمكين كل من التعبير عن دينه وثقافته بلا تحجير.

وفي الأخير تعهد الموقعون على الوثيقة بالعمل على إيصال القيم النبيلة التي احتوتها إلى صناع القرار العالمي، والقيادات المؤثرة، ورجال الدين في العالم، والمنظمات الإقليمية والدولية المؤثرة، ومنظمات المجتمع الدولي، والمؤسسات الدينية وقادة الفكر والرأي، لتقرر في سياسات وقرارات ونصوص قانونية، ومناهج تعلمية، ولتكون موضع تأمل في المدارس والجامعات، من أجل إنشاء أجيال تؤمن بالسلام وتحمل الخير، وتدافع عن المظلومين والبؤساء في كل مكان.

الخاتمة :

إن عسكرة الإسلام، قيما وتاريخا ومشروع استئناف حضاري، التي ضربت خمر الغفلة على العقل المسلم، بالتضييق الشائن للمفاهيم الواسعة، ومنها الجهاد، وحصرته في الإغارة والسلب بدل الحجة والبيان والمطارحة العلمية ومد جسور التلاقي على المشتركات، توجب على العلماء والباحثين وأهل الرأي في الأمة الانتهاض إلى استرجاع الألفاظ التي سطى عليها الفكر المأزوم فأفرغها من حمولاتها القيمية الأصيلة، وحملها بقيم دخيلة على الفقه الإسلامي، تهدم ولا تبني، وتفرق ولا تجمع، وتسعى بالناس إلى المهالك.

وسبيل ذلك تأصيل القيم الكونية المطلقة في التسامح والتعايش على المشتركات ببيان الهدي النبوي في معاملة غير المسلمين بـالعدل والإحسان، واستدعاء القواسم المشتركة، من خلال تجديد القراءة في

السيرة النبوية الشريفة، إحياء المفاخر الإسلامية الكبرى والتاريخ الحضاري للأمة في المشرق والمغرب وبلاد الأندلس.

وحلف الفضول الذي حضره الرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وأشاد به بعدها، بما حواه من قيم الانتصاف لصاحب الحق، والانتصار للمظلوم، ووثيقة المدينة بحسبانها أول دستور للمواطنة، بما تضمنته من قيم الأخوة الإنسانية، والعدل والمساواة، وحرية العقيدة والعبادة، وحرمة الأنفس والأموال، والتكافل والتعاون على الخير، والتعاضد على رد العدوان، يوجب على الباحثين والمهتمين بالحوار الحضاري استدعاء هاتين المفخرتين، لاسيما في زمن العصبية الدينية أو القومية، لتفكيك الأزمات المتراكبة. وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

وقد أوفت المبادرات الثلاثة بهذا الواجب الكفائي المتعين بما حملت من هموم الإنسان وآلامه، وأسمعت أنينه وآهاته، وعبرت عن آماله وطموحاته، ونقلت إلى الأقوياء والأغنياء والمترفين عتب الضعفاء والفقراء والمساكين، وأسمعتهم صرخات فجاج الأرض الموجوعة من اعتداء الإنسان على ما تدخره للأجيال، واستبداد القلة المتخمة بها، وصيحات أبراج السماء المنبهة إلى بوادر الأفول بسبب الأثرة والظلم والتسابق إلى مهاوي الخراب.

إن هذه الوثائق التاريخية بما تضمنته من معان عالية جامعة، تبعث الأمل في أن الفطرة في المسيحية كما هي في الإسلام لم تدنسها أوضار المادية، وأن الحنيفية السمحة التي ابتعث بها النبيون محفوظة في القيم العليا التي يتفق عليها المتألهون في كافة الأديان، وأن العقول إذا تمحضت للحق وأخلصت للحقيقة لا مناص لها من أن ترجع إلى رشدها، ورشدها في توحيد الخالق ووحدة الخلق، فالقيم السامية لا تصدر إلا من واجب الوجود، المتحقق بالكمال المطلق خلقا وأمرا.

إن من واجبات الوقت السعي لأن يكون السلم والتعايش تيارا عاما يدافع منزع التطرف والصدام الذي يعشش في الأقبية المظلمة، ويتعاظم شره ويتطاير شرره في العالم كله، ولكل في بيئته وبحسب ظروف المكان والزمان، وفي رأسها الخيارات الاستراتيجية للدولة لاسيما في علاقاتها الخارجية، وتقديرها لمصالحها الحيوية وأمنها القومي، وبما يتوافق مع نظامها القانوني؛ أن يؤسس المؤسسات والمراكز، والمنتديات والنوادي، ويضع البرامج التدريبية على ثقافة السلم والتعايش وقبول الاختلاف، ويعقد حلقات النقاش، لاسيما في دور الشباب والمراكز الثقافية والرياضية، ولطلاب المدارس والمعاهد، وفي المؤسسات الجامعية وإقامات الطلبة؛ وحتى السجون ومراكز تأهيل الجانحين؛ لأن تفكيك ألغام التطرف والنزوع إلى العنف لا يثمر فيه البحث والتأصيل، حتى يشفع بحراك مجتمعي ينزل مخرجاته إلى الساحات العامة، ووسائل الإعلام والوسائط الاجتماعية.

ومن وسائل ذلك توأمات التبادل الثقافي مع المختلفين ثقافة أو عرقا أو ديانة، ولو عن طريق التفاعل الرقمي إذا عزت إمكانات التنقل، وإحياء نوع من السياحة الثقافية في بيئات أخلاقية نظيفة هو (سياحة التعايش)، أو (القوافل الثقافية للعيش المشترك)، لتطبيع العلاقات والتعود على رؤية المختلف، وتعزيز اللقاءات الثقافية لاسيما بين الروحانيين من الطوائف والأديان المختلفة، مثل التي تحدث كل سنة في السابع عشر من ديسمبر في قونيا بتركيا بمناسبة ذكرى مولانا جلال الدين الرومي.

ولا يصح التعلل بأن في ذلك خطرا يتهدد عقيدة الشاب المسلم وثقافته والأخلاق التي نشأ عليها، فإنه تعلل ساذج يعيش صاحبه خارج التاريخ والجغرافيا، فإن الرقمنة والوسائط الاجتماعية اقتحمت على النساك معابدهم، وعلى الرهبان صوامعهم، ودخلت على الدروايش التكايا والزوايا، وقطعت على المتألهين تأملهم، وشوشت على المصلين لحظات الوصل بربهم، فكيف بشبان اليوم المراهقين؟، إنهم يعرفون من شؤون الدنيا ما لا يعرفه من هرم، ويصلهم من أسباب الفساد ما الله به عليم، فلم يبق غير التوجيه من وجيه، والترشيد من رشيد، وما عرضناه في هذه الورقة من مسالك التوجيه والترشيد دلالة عليه، وما ختمنا به غرف من بحره ... وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث

أبو الحسين مسلم بن الحجاج مسلم. (1955). *صحيح مسلم*. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

إبو الفدا إسماعيل بن ابن كثير. (1976). *السيرة النبوية*. القاهرة: دار المعرفة.

أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير. *البداية والنهاية*. القاهرة: مطبعة السعادة.

أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري. (1407). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. بيروت: دار الكتاب العربي.

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. (دت). *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. مكة المكرمة: دار التربية والتراث.

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. (1964). *الجامع لأحكام القرآن*. القاهرة: دار الكتب المصرية.

أبو محمد عبد الملك ابن هشام. *سيرة النبي صلى الله عليه وسلم* . طنطا: دار الصحابة للتراث.

أحمد بن علي ابن حجر لعسقلاني. (1986). *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*. مصر: دار الريان للتراث.

إعلان مراكش. (2016). *إعلان مراكش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي*. مراكش: الموقع الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية غي المملكة المغربية.

الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر. (1992). *كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب*. بيروت: دار الجيل.

شهاب الدين أحمد بن أدريس القرافي. *الفروق*. عالم الكتب.

محمد الطاهر بن ابن عاشور. (1984). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.

وكالة أبناء الإمارات. (10 12، 2019). *ميثاق حلف الفضول الجديد* . تاريخ الاسترداد 09 08، 2023، من وكالة أنباء الإمارات: https://wam.ae/ar/details/1395302809483